

التفسير المطول -سورة الأحقاف 046- الدرس (05-06): تفسير الآيات 21-27 المواظ والعبر من قصة سيدنا هود عليه السلام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-11-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الأحقاف.

العبر من قوله تعالى **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ**:

تذكير الله عز وجل للنبي الكريم بهود عليه السلام و تكذيب قومه له:

مع الآية العشرين، وهي قوله تعالى:

وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

سورة الأحقاف

الله سبحانه وتعالى يُوجِّه الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، ويقول له: **﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾**، يعني هوداً، وهي أحوّة نسب، قال تعالى:

وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50)

سورة هود

فكان هود عليه السلام أخاً لقومه نسبياً فيقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام: **أذكر هوداً، واذكر تكذيب قومه له، واذكر صبره على قومه، واذكر شدة المحنة التي قاساها، لك به أسوة حسنة.**

قصص القرآن الكريم عبر و دروس للإنسان:

أيها الإخوة الكرام، قصص القرآن لا ينبغي أن تكون قصصاً إطلاقاً! إنما هي عبرٌ ودروس، فالله سبحانه وتعالى حينما يوردُ قصةً في القرآن الكريم تُتلى إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أن هذه القصة ينبغي أن تكون عبرةً، ينبغي أن تُستنبط منها الحقائق والدروس، وينبغي أن تؤخذ منها القواعد، فالله سبحانه وتعالى يُؤدّب النبي عليه الصلاة والسلام أدباً رفيعاً، فإذا ضاقت عليك الأمور، إذا ضاقت نفسك بتكذيب قومك لك، إذا ضاقت نفسك بتأمر قومك عليك، إذا أرادوا إخراجك من بيتك، إذا أرادوا أن يُحاربوك، إذا نكّلوا بأصحابك، إذا فعلوا الأفاعيل، ﴿وَأذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، فقد أرسل إلى قومه وتحمل منهم ما تحمّل.

نحن كيف نستفيد من هذه الآية؟ إذا أصببت بمصيبة فاذكر مصيبة المسلمين برسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي على علو شأنه مات ابنه إبراهيم، وقال:

إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

صحيح البخاري

امرأة شريفة طاهرة عفيفة، تكلم الناس بها الناس عنها كلاماً لا يليق بها، فهذه لها في السيدة عائشة أسوة حسنة.

صحابي جليل عانى من شدة الفقر لك به أسوة حسنة، فإذا قرأت سير الصحابة، وإذا قرأت قصص الأنبياء ينبغي أن تكون هذه القصص عبراً لك ودروساً.

إهلاك الله عز وجل قوم هود لإفسادهم في الأرض:

هناك معنى آخر وهو: يا محمد اذكر لقومك أخا عاد، أي ذكرهم كيف كان قوم هود أشداء وأقوياء، وكذبوا ولم ينصاعوا، وسخروا واستهزؤوا فأهلكهم الله عز وجل.

العاقل من اتعظ بغيره:

إذا الآية تحتل معنيين، أي اذكر يا محمد في نفسك أخا عاد كيف دعا قومه إلى ربه، وتحمل من قومه ما تحمّل، أي يا محمد اذكر لقومك قصة أخي عاد سيدنا هود، وكيف أن قومه لم يؤمنوا به، واستهزؤوا به، واستعجلوا العذاب، وكيف أنهم كانوا أقوياء وأشداء، ومع كل ذلك أهلكهم الله عز وجل، إذا نحن نستفيد من هذه الآية كتطبيق عملي؛ إذا رأيت في التاريخ إنساناً طغى وبغى، ونسي المبتدأ والمنتهى، ثم قصمه الله عز وجل فهذه عبرة ينبغي أن نأخذ بها، إذا رأيت إنساناً أكل مالا حراماً فدمر الله ماله، هذه عبرة ينبغي أن نأخذ بها، وإذا رأيت إنساناً اغتدى على أعراض الآخرين، وفضحه الله تعالى في بيته، فهذه عبرة ينبغي أن نأخذ بها، والمؤمن شأنه كما قال عليه الصلاة والسلام:

أوصاني الله بتسع أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأن أعطي من حرمني، وأعفو عن ظلمي، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبيراً.

رواه رزين

فالمؤمن يتعظ بالآخرين.

الله عز وجل رحيم بعباده يُرسلُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ إلى الأَقوامِ لِيُبشِروهم و يَنذِروهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ﴾ الأحقاف كُتبان الرِّمال المرتفعة، ويذكر المُفسِّرون أنَّ الأحقاف هي نُجود من الرِّمال المرتفعة في جنوب الجزيرة العربيَّة، وهي على وجْه الغلَبَة بلاد حضرموت، فحضرموت كانت بلاد أخي عاد، أي قوم هود، فالمعنى واذكر لقومك قصَّة هؤلاء القوم، واذكر لِنفسك قصَّة هذا النبي، النبي حقيقة، موعظة لرسول الله، وقوم سيدنا هود موعظة لِنقيَّة الأَاقوام، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فالإنذارات مستمرة، فمن بين يديه أي من أمامه، ومن خلفه، أي من ورائه، فالنذر كانت قبله وبعده، فليس هودٌ أوَّل نذير، وليس آخر نذير، كان نذيراً وقد جاءت من قبله النذر، وسوف تأتي من بعده النذر، وهذا يدلُّ على رحمة الله جلَّ جلاله بعباده، فالإله الرحيم دائماً يُرسلُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ إلى أقوامهم مبشِّرين ومنذرين.

العبادة أعلى علاقة بين المخلوق وخالقه:

فمضمون الدَّعوة: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ﴾ أنذَرهم، وهم مُقيمون بالأحقاف، مضمون الإنذار: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فإذا ضَغَطنا أيَّة دَعْوَة سماويَّة بكلمات كانت: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، العبادة غاية الخُضوع مع غاية الحب، مع غاية الاستسلام، مع غاية الإخلاص، العبادة هي أعلى علاقة بين المخلوق وخالقه، قال تعالى:

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

سورة الذاريات

الله عز وجل وحده من يستحق العبادة:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ الإنسان لا بدَّ له من أن يعبد، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبد غير الله، والإنسان فيه ضعف، وهذا الضعف كيف يُقويهِ؟ بعبادة جهة قويَّة، وفيه نقص، كيف يكمله؟ بعبادة جهة قويَّة، فالمؤمن يعبد الله القوي، الغني، الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الحكيم، العليم، السميع، البصير،

والأشقياء لضعفهم وخوفهم، وقلقهم وضياعهم يعبدون غير الله، يعبدون الأقوياء، والتَّوجِيه الإلهي عن طريق هذا النبي الكريم، قال تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا شيء دقيق جداً، وعلى الإنسان أن يحاسب نفسه، فهل يُطيع مخلوقاً، ويعصي خالقه؟ إذاً هو يعبده من دون الله، هل يسمح لنفسه أن تُرتكب معصية في بيته إرضاءً لزوجته، أو لبناته، أو لأولاده، أو لأصدقائه؟ هو يعصي الله عز وجل، إذاً هو يعبدهم من دون الله، فالتوجيه الإلهي: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ من الذي يستحق العبادة؟ هو الله جلَّ جلاله، فالذي يُعبد هو الذي يُحيي، والذي يُعبد هو الذي يُميت، والذي يُعبد هو الذي يرزق، والذي يُعبد هو الذي يُعطي ويمنح، ويرفع، ويخفض، ويبسط، ويقبض، ويحيي ويميت؛ هذا الذي يستحق العبادة، هو الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، يعلم السرّ وأخفى، يعلم الجهر، ويعلم ما خفي عنك أنت، ويعلم ما أعلنته، ويعلم ما أسرته، فهذا هو الذي ينبغي أن يُعبد.

من عبد غير الله تعالى خسر دنياه و آخرته:

أما إذا عبدت إنساناً ضعيفاً لثيماً قاصراً في إدراكه، وقاصراً في سلطانه، فقد خسرت خسارَةً مُبِينَةً، إذاً كما قال تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فالمؤمن الصادق دائماً يراقب نفسه، هل يُطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً؟ هل يمحض حبه لغير الله؟ وهل يمحض ولاءه لغير الله؟ هل يُوجّه اهتمامه لغير الله؟ قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الخير و الأمانة في منهج الله و الكذب و الخيانة في غيره:

الآن السؤال الدقيق؛ إذا عبد الإنسان غير الله، لماذا يستحقّ هذا العذاب العظيم؟ لو أنّ الله تجاوزَ عنه؛ أُعبد من شئت.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنْتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَنْتَقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنْتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنْتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

رواه مسلم

لا إيماننا بالله عز وجل ينفع الله عز وجل، ولا كفرنا به يضره، فلماذا إن عبدنا غيره فلنا عذاب عظيم؟ هذا سؤال! لعلّ الجواب أنّك إذا عبدت غيره خرجت عن منهج العدالة، وأقمت شؤونك على العُدوان، ولأنّ الله تعالى عادل، ومنهجه هو الحقّ، هو العدل، هو الرّحمة، هو الإنصاف، هو الخير، هو

النور، هو الصدق، هو الوفاء، أما منهج غير الله يستحيل أن يكون فيه الصدق، بل الصدق كله في منهج الله، وإذا ابتدعت منهجاً آخر كان فيه الكذب، والأمانة كلها في منهج الله، وإن اتبعت منهجاً آخر ففيه الخيانة، والإحسان كله في منهج الله، وإن اتبعت منهجاً آخر فيه الإساءة، وكذلك الاستقامة في منهج الله، وإن اتبعت منهجاً آخر كان الانحراف، فالخير كله في منهج الله، وإن اتبعت منهجاً آخر فيه الشر.

الحق واحد لا يتعدد:

إِذَا اللَّهُ جَلَّ جلاله حينما تعبدُ غيره لا بدَّ من أن تطغى، ولا بدَّ من أن تبغي، ولا بدَّ من أن تعتدي، ولا بدَّ من أن تتحرف، ولا بدَّ من أن تسيء، لأنَّ الحق لا يتعدَّد أما الباطل فيتعدَّد، فالحق خطُّ مستقيم، بين نقطتين لا يمرُّ إلا خط مستقيم واحد، إذا ينبغي أن نلاحظ بين الآيتين ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ لأنكم إن عبدتم غير الله فلا بدَّ أن تتحرفوا، ولا بدَّ من أن تُسيؤوا، فمنهج غير الله عز وجل ضلال و شقاء.

الطُّغيان والبغي من لوازم عبادة غير الله:

في الهند إذا مات الرجل ينبغي أن تُحرق امرأته معه، أو ينبغي أن تُدفنَ معه وهي حيّة في القبر، هذا عُذوان، لم يشأ الله لهذه المرأة أن تموت، يجب أن نُميتها مع زوجها، فأبى منهج آخر فيه عُذوانٌ شديد، هناك أدلّة واقعيّة، أنظر هذا الذي لا يستجيب لأمر الله تعالى، أين يذهب؟ كيف يتعامل مع الناس؟ قال تعالى:

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10)

سورة العلق

الآية انتهت، كيف انتهت يا رب؟ أنظر إلى أحواله، وإلى علاقاته، إلى معاملاته، وإلى صدقه فهو كاذب لا يصدق، وهو يخون وليس أميناً، كما أنه قاسي القلب، لا يرحم، ومُجحف لا يُنصف، ومعتدٍ لا يستقيم، ومنحرف لا يسير على منهج الله عز وجل، لذلك من لوازم عبادة غير الله الطُّغيان، والبغي، والعُدوان، والظلم، وهذه الصِّفات لها عقاب شديد، ومن ثمَّ فالأنسجام واضح بين الآيتين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ إنكم إن عبدتم غير الله، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الذي يعبد غير الله قد يعتدي على أعراض الآخرين، وهذا واقع.

العذاب الأليم لمن اعتدى على أعراض الآخرين:

المؤمن مستقيم لا يعرف من النساء إلا امرأته، أما غير المؤمن يعتدي على أعراض الآخرين، وهذه الفتاة التي اعتدي عليها، فأصبحت بعد هذا الاعتداء ساقطة، وأصبحت تأكل بثدييها، فلما زوى جمالها ألقيت على قارعة الطريق، أليس هذا الذي اعتدى عليها جعلها بهذه النهاية الوخيمة؟ يوم القيامة يُريه الله عمله، هذه الفتاة كان من الممكن أن تكون أمّاً شريفة لها أولاد، ولها أصهار، ولها مكانة اجتماعية رفيعة، فأنت حينما اعتديت عليها حولتها إلى ساقطة، ولما سقطت أكلت بثدييها، فلما زوى جمالها ألقيت كما تُلقى الفأرة الميتة خارج المنزل، هذا هو العُدوان، فيستحيل على الذي يخرج عن منهج الله تعالى إلا أن يعتدي؛ إما على أموال الآخرين، أو على أعراضهم، أو على مُمتلكاتهم، أو على حقوقهم الأدبية، لا بدّ من أن يتكبر ويجدد، ولا بدّ من أن يكون قاسي القلب، فهو مقطوع عن الله تعالى، فليس العذاب العظيم لأته لم يعبد، ولكن لأنه طغى وبغى، واعتدى وظلم، وجدد وأنكر.

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً عبادة الله وحده و توحيدة:

إذا فحوى دعوة هذا النبي الكريم: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، والحقيقة هذه فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، قال تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

سورة الأنبياء

أن تعبد الله وحده، وأن تُوحده عقيدةً، وأن تعبدَهُ سلوكاً، هذا هو الدين، إذا أردت أن تبيسط، وأن توجز، وأن تضغط، فعليك أن تُوحده، وأن تعبدَهُ، فما من نبيٍّ على الإطلاق إلا وقد جاء قومه بهاتين الحقيقتين؛ توحيد الله عز وجل وعبادته.

أمنية الكافر يوم القيامة أن يدفع دنياه بأكملها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به:

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ما قَوْلُكَ أيها الأخ الكريم إذا قال لك الله العظيم: عذاب يوم عظيم؟ لو قال لك طفل: معي مبلغ كبير، كم تُقدّر هذا المبلغ؟ طفل صغير في الصف السادس إذا قال لك أنا معي مبلغ كبير، ولكن إذا قال لك إنسانٌ راشد: معي مبلغ كبير، إذا قال لك تاجر كبير: معي مبلغ كبير، وإذا قال لك أغنياء الأرض: أنا معي مبلغ كبير، كلمة كبير تتراوح بحسب القائل، خالق الكون يقول لك: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فما هو هذا العذاب؟ قال تعالى:

يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11)

سورة المعارج

لو أنّ للكافر الدنيا بأكملها، لدفعها ومثلها معها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به.

إقبال الناس على عبادة غير الله على الرغم من الإنذارات المستمرة من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فالإنذارات مستمرة، وليس إنذار هذا النبي الكريم أول إنذار، وليس آخر إنذار، ونحن نعيش، ونرى من حولنا مواعظ وعبراً ودروساً، وهذه المواعظ وتلك العبر، وهذه الدروس ليست أول الدروس وليست آخرها، مادام هناك خالق رحيم فإنذاراته مستمرة، وعلاجاته مستمرة، وأدواؤه مستمرة، الآن ردّ الفعل، قال تعالى:

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفِكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

سورة الأحقاف

تأفكنا أي تصرفنا عن آلهتنا، وقد يسأل سائل، كيف نصدق شعباً كشعب الهند إحصاء ما قبل عشرين سنة أربعمئة وخمسون مليوناً، والآن حوالي سبعمائة مليون، يعبدون بوذا! كيف يُقبلُ الناس على هذه العبادة؟ هناك جواب دقيق جداً؛ أن هذه الأصنام، وهذه الأديان الوضعية، ليس فيها تكاليف، فيها ببحوحة، أفعَل ما تشاء ولكن أقرّ بهذا الصنم أنه إله، وانتهى الأمر، إقبال الناس على هذه الأديان بملايينهم الممليئة، وبالاعداد الغفيرة، هذا لا يدلّ على أنّ هذا الدين حق، لا، ولكن يدلّ على أنّ هذا الدين لا تكليف فيه، انتماء شكلي، وإقرار صوري، ثم لك أن تفعل ما تشاء.

إقبال الناس على التمسك بالمذاهب الوضعية لانعدام التكاليف فيها:

من قرأ تاريخ الأديان في العالم يرى العجب العجيب، فأكثر الأديان بُعداً عن الحق أقربها إلى الإباحية والاشتراك في النساء وفي الأموال، فحينما تنعدم الحدود والقيود والموانع والزواجر والأوامر والنواهي يصبح الانتماء سهلاً، فلذلك إن رأيت الملايين من الناس تدين بدين أرضي وضعي فلا تعجب، لأنّ هذا الدين لا تكليف فيه، والدخول فيه سهل جداً، وهناك مصالح دنيوية كثيرة تتحقق من هذا الدين، لكنّ دين الله هو دين الحق، بمعنى أنّ فيه الأمر وفيه النهي، فالإنسان المؤمن يبحث عن منهج حقيقيّ فيه الأمر والنهي، والحرام والحلال، فالجاهليون مثلاً لو قرأت أي كتاب عن حياتهم لوجدت أنّ بضعة عشر رجلاً يتزوجون امرأة واحدة، وهي تنتقي، فحينما تلد تقول: هذا الغلام لفلان، وانتهى الأمر! يوجد إباحية، وفوضى في العلاقات الجنسيّة، وفوضى في كسب المال، الربا أضعاف مضاعفة، العلاقة بالمرأة علاقة مباحة بأي شكل، هذه هي الجاهلية، فإقبال الناس على التمسك بالجاهلية الأولى والثانية، أو على المذاهب الوضعية أساسه أنّ هذه المذاهب وتلك الجاهلية ليس فيها تكاليف.

فالأنبياء لما يأتون بالمنهج، فمن الذي يعارضهم؟ المترفون، الغارقون في الشهوات، المنحرفون:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفِكَ عَنْ آلِهَتِنَا﴾.

طبعاً كذبوا دعوته وسخروا منها ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأْفِكَنَّا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَأْتِنَا﴾ استهزاء بوعيد الله عز وجل، ألم يقل لهم أخوهم هود: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأْفِكَنَّا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ هذا هو الاستهزاء، فقال لهم بأدب النبوة:

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23)

سورة الأحقاف

هذا تركيب فيه قصر، يعني العلم عند الله وحده، فهو الذي يأتي بالعذاب، أما متى يأتي به؟ أو كيف يأتي به؟ وبأي طريقة يأتي به؟ ومن يُصيب به؟ هذا ليس من شأنك، هذا من شأن الله تعالى.

بالمناسبة المؤمن كلما نما إيمانه يتمسك بعبوديته لله عز وجل، ويتخلى عن مواقف لا تليق بذوي الإيمان، فلو سُئل عن تقييم شخص؛ ماذا يقول؟ يقول: تقييم الأشخاص من شأن الله، وليس من شأن البشر، وحتى لو مدح شخصاً يقول: أحسبه كذلك، ولا أزكي على الله أحداً، فالمؤمن كلما ارتقى تمسك بالمنهج، رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل بيت أحد أصحابه وقد توفّي من فوره، فلما سمع امرأة تقول:

رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السائبِ فَشَهِدَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ يَا بَئِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهُ إِيَّيَ لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهُ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أَزْكِ أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

رواه البخاري

فأن تقول: فلان أكرمه الله، فلان من أهل الجنة، هذا تالٍ على الله تعالى، من قال لك ذلك؟ ليس هناك على وجه اليقين أناسٌ بُشِّروا بالجنة إلا العشرة المبشرين، أما الباقون فنرجو الله أن يكونوا من أهل الجنة، وهذا هو مقام العبودية، مقام فيه تواضع، وبعيد عن التألّي على الله.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأْفِكَنَّا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا يُعاد كل يوم، فأنت تقول لأحدهم: هذا الدُّخْل حرام، وهذا الدُّخْل رَبْوِي مثلاً، فيقول لك: وما الذي يحدث؟ هل يُدَمِّر الله لي مالي؟ دعه يُدَمِّرُه! فإذا نبّهت إنساناً إلى معصية كبيرة، إلى حرام، إلى علاقة ربوية، إلى علاقة مع النساء لا تجوز، واختلاط يقول لك آخر: دعه يفعل ما يشاء، إنها مقالة أهل الضلال، وهذا كلام الكافرين، وملة الكفر واحدة، قال تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

خشية المؤمن بعقله و خوف الكافر بعينه:

سبحان الله! فكل إنسان يتحدّى ويتألّى، ويطلب العقاب ويستعجله، وحينما يأتي العقاب تجده يلوي كما تلوي الأفعى من شدة الحر، ثم نتيجة العنجهية والكبرياء تجده صار ذليلاً، ثم يصيح ويستغيث، ويستجير ولا مجير، إن الإنسان بطبعه يخاف، فأما المؤمن يخاف بعقله، أما الكافر فيخاف بعينه، فإلى أن يأتي العذاب يخاف، أما المؤمن فهو يخاف بعقله، والذي يخاف بعقله هذا يسمّى خشية، وليس خوفاً، فالخوف بالعين، أما الخشية فبالعقل.

مهمة الأنبياء التبليغ:

بأدب النبوة قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا ليس من شأني، متى يأتي العذاب؟ وكيف يأتي العذاب؟ ما نوع العذاب، وما شدة العذاب؟ ومن يُصيب هذا العذاب؟ فهذا ليس من شأني! هذا من شأن الله وحده، ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أنا مهمتي أن أبلغكم ما أرسلت به: ﴿وَأَبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

من ازداد معرفة بالله ازداد خشية منه:

الذي لا يخاف جاهل، هناك قصة كنت أروها دائماً؛ بعض الفلاحين يأخذون أطفالهم الصغار جدّاً، ابن سنة مثلاً، إلى الحقل أثناء الحصاد، وقد يمرّ ثعبان كبير ثخين بجانب طفل صغير، فهذا الطفل الصغير يضع يده على الثعبان ويألفه ويستأنس به، ولا يعرف ما خطورة هذا الكائن، فلو كان كبيراً لقفز من فوره، ولصاح بأعلى صوته! فعدم الخوف يدلّ على عدم الإدراك، والإنسان يخاف بقدر علمه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ تَعَالَى.

ضعيف الجامع

أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له.

صحيح البخاري

هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، وسيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: "أتمنى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا علي، ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً"، هذا عملاق الإسلام المبشر بالجنة، الذي جند الجند، وفتح البلاد، وجّهز الحيوش، وفتح الله على يديه أطراف الدنيا، وكان زاهداً متقشفاً، يُضرب به المثل في الورع، والزهد والعدل، ومع ذلك قال: "أتمنى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا علي، ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً"، هذا كلام حقيقي وليس تمثيلاً لشدة معرفته بالله

كانت خشيةً منه، وأنت تخشى الله بقدر معرفتك به، كلما ازددت به معرفةً ازددت له خشيةً، قال تعالى: ﴿وَلِكَيْي أَرَآكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

التعريف بالإنسان الجاهل:

من هو الجاهل؟ هذا الذي يرتكب الموبقات، ويعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم، ويظن أن هذا العمل فيه نكاه وبطولة، ثم يتبجح بين الناس بعُدوانه على أموال الآخرين، وعُدوانه على أعراضهم، هذا جاهل، هذا الذي لا يرى العقاب الحتمي، ولا يرى المصير الحتمي لكل معصية وانحراف، فهو جاهل، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلِكَيْي أَرَآكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وكل إنسان يدعو إلى الله عز وجل يواجه هذه الحالات، إنسان مستهزئ، يقول لك: من اليوم ليوم الله يفرجها الله! هذا الحاضر، افعَل ما شئت! هذا كلام الناس المُتفلتِينَ والمنحرفين.

وصف حال قوم لوط عليه السلام:

تروي كتب التفسير أن هؤلاء القوم، قوم هود الذين سكنوا بالأحقاف أصابتهم موجة حرٍ شديدة، جعلت بلادهم مُعبرة، حر لا يُطاق، وغبار شديد، وبعد هذا الحر الشديد، وهذا الغبار الذي لا يُطاق، رأوا السماء ملبدة بالغيوم:

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)

سورة الأحقاف

رأوا سحاباً في السماء، فقالوا: جاء الخير، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ هذا هو العذاب.

عقاب الله عز وجل لا يبقى على شيء:

قد سمعتم بالأخبار ما تفعله الأمطار، فقد تدمر وتهلك القرى، والإعصار الذي أصاب أمريكا دمر كل شيء، وكانت الخسائر ثلاثين ملياراً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الرياح لها سرعات، إذا تجاوزت المائة والخمسين كيلومتراً أو المائتين تدمر؛ الجدران تسقط، والأشجار تُقتلع من مكانها، وإذا صارت سرعة الرياح ثمانمائة وألف كيلو متراً لا يبقى شيء، الأعاصير الشديدة تقتلع البيوت من أساساتها، فلا يبقى بيوت ولا جسور، ولا أشجار، تدمر كل شيء.

الأعراض الجوية ليست شيئاً عارضاً بل هي عذاب من الله عز وجل:

قال تعالى:

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ
بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

سورة الأحقاف

انظر إلى الدقّة في التعبير؛ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ معنى ذلك إن سمعت عن فيضان، أو إعصار، أو زلزال، أو رياح شديدة أهلكت الحزب والنسل، عن وباء اجتاح العالم، إيّاك أن تفهم هذا أنّه شيءٌ عارض، بل قال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ هذه الرياح لها ربٌّ هو الذي سيرها، وسمح لها أن تُدْمِرَ، وهذه الصاعقة لها رب هو الذي أنزلها على القوم، وهذه الأرض لها رب هو الذي زلزلها، وهذا الماء الذي طغى وبغى، له رب هو الذي أرسله، فالإنسان حينما يرى الأعراض الجويّة من مطرٍ إلى ثلجٍ إلى حب العزيز أحياناً، إلى رياح شديدة، إلى صقيع يدمر المحاصيل كلّها، هذا الفهم ينبغي أن يكون فهماً توحيدياً، في أحد المرات انخفضت الحرارة ببعض المناطق الزراعيّة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، فأتلقت ثمانين مليون ثمن البذور! وأتلقت المحاصيل كلّها، ثمنها مئات الملايين، وحتى ألف مليون أحياناً تصاب بصقيعٍ طارئٍ فلا يُبقي منها ولا ينر.

الدمار و الهلاك عاقبة قوم هود عليه السلام:

أدق ما في الآية: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ والرياح لها رب، والجراثيم له رب، والماء لها رب، الهواء والماء والصواعق والزلزلات والبراكين، وهذه الأوبئة والأمراض، هذه كلّها لها رب، قال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ فأصحاب المساكن ماتوا عن آخرهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

ما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب معين:

أحياناً يقولون لك: أصبح هناك انفتاح، ولكن مع هذا الانفتاح معاصٍ، ومنكرات، وفتن، واختلاط، وشرب الخمر، ومناظر لا ترضي الله عز وجل، وبرامج ساقطة، ومحطّات فضائيّة، فإذا كان من حولنا قد دُمروا وفعلنا مثل فعلهم فمن المحتمل أن نُدمر مثلهم! وهذه قاعدة، إذا كان من حولنا قد دُمروا بهذه الطريقة، ونفعل فعلهم، فشيءٌ متوقّع جداً أن يُصيب العُصاة ما يصيب بقية العصاة.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الحقيقة أيها الإخوة، إنني أرجو الله سبحانه أنه إذا سمع أحدكم عن خبر من مشكلات العالم ألا يغزل هذه المشكلة عن التوحيد، هذا الشيء الذي حدث له ربٌّ، وهذه المصيبة وقعت لسبب، وما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب، قال تعالى:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (117)

سورة هود

من أعرض عن ذكر الله دمره الله و لو بعد حين:

مستحيل، فالإنسان عليه أن يتعظ، وعليه أن يستقيم على أمر الله، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمَىٰ ۖ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

سورة الأنبياء

القصة مؤثرة، نبي كريم دعاهم إلى رب كريم، إلى منهج قويم، وإلى طاعة الواحد الأحد، كذبوا واستهزؤوا، وأعرضوا واستعجلوا العذاب، فجاءتهم سحابة ظنوها مطراً لأوديتهم، فإذا في هذه السحابة عذاب أليم، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

القوة و البأس لا ينجيان العبد من عذاب الله:

قال تعالى:

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26)

سورة الأحقاف

إن الله سبحانه و تعالى يُمِدُّ، ويعطي الصِّحة، ويعطي القوَّة، ويعطي المال والثروة، الإنسان لما يكون قوياً، ومع القوَّة جهل، فإذا رأيت الله يُتَابِعُ نِعْمَهُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاخْذِرْهُ، إذا وجد الإنسان أن هناك توفيقاً ومالاً وفيراً وصحة وقوة وشأن ومنعة وهو على غير منهج الله فهذا استدرج، وليس إكراماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي مَكَّنَّهُمْ ما لم نُمْكِّنْ لَكُمْ، فكانوا أكثر منكم قوَّة، وأكثر جمعاً، وأكثر غنى، وأكثر بأساً ومع ذلك ما أغنى عنهم جمعهم ولا قوتهم ولا بأسهم من الله شيئاً.

العقل من أعظم النعم التي منحها الله تعالى للإنسان:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ السمع ليستمعوا إلى الحق، وأبصاراً ليروا الآيات، وأفئدة، الفؤاد إن جاء مع السمع والبصر فهو العقل، فهناك عقل الرأس، وهناك عقل القلب، فإذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر، فالبصر نافذة، والسمع نافذة، والعقل هو الذي يحكم، أعطيناهم سمعاً ليستمعوا إلى الحق، وأبصاراً ليروا الآيات، وأفئدة عقولاً كي تحكّم بوجود

الله عز وجل وأسماؤه الحسنی، قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

من أراد الهدى فكل شيء يدلّه على الله:

أيها الإخوة، أراد الله جلّ جلاله من هذه الآيات أن يُعلّمنا أنّ الإنسان العاصي ينبغي ألاّ يغرّر بِقُوّته، ولا يرفّعه شأنه، ولا يَغِنَاه، ففي لحظة واحدة تصبح القوّة ضعفاً، والغنى فقراً، ويصبح الرجل خبيراً بعد أن كان رجلاً، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَنْفُسَةً﴾ هذه الأجهزة حجة علينا، أعطيتك يا عبدي سمعاً من أجل أن تستمع إلى الحق فأعرضت عن الحق، وأعطيتك بصرًا من أجل أن ترى الآيات فلم تنظر إليها، وأعطيتك عقلاً من أجل أن تحكم بهذه الحقائق فلم تستخدمه، فالإنسان إذا أراد الهدى كلّ شيء يدلّه على الله، أمّا إن أراد الدنيا وشهواتها تصبح الدنيا حجاباً بينه وبين الحقيقة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ.

ضعيف أبي داود

يجعلك أعمى أصم.

قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ حاق بهم: أي أحاط بهم، فاستهزأوهم أحاط بهم وأوصلهم إلى الهلاك.

الهلاك عاقبة من سار على درب الأقوام السابقة:

ثمّ يقول الله عز وجل:

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

سورة الأحقاف

هذه الآية مُطبّعة الآن، شرقنا في هلاك، وغربنا في هلاك، وشمالنا في هلاك، وجنوبنا في هلاك، تارة حروب أهليّة، وتارة صواعق، وتارة براكين، وتارة زلازل، وتارة فيضانات، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ أي؛ أهلك ما حولنا من القرى لأنهم فسقوا وعصوا فإذا سبنا على ذريهم، ومنهجهم فالهلاك مُحَقَّق بحكم القوانين، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالآيات صرّفناها أي أظهرناها، فالآيات صارخة، ولكنّ الأعمى لا يرى.

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَنْبِشُونَ (45)

سورة الزمر

فأنت إن أشركت يفرحون، أما إن وحدت وأعطيت تفسيراً توحيدياً، وفسرت هذه الأمور تفسيراً متعلقاً بالله عز وجل فالناس التائهون لا يرضون بهذا، قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. صرّفنا الآيات أي؛ أظهرناها جلية واضحة.

الأحداث الكبرى ينبغي على الإنسان أن يربطها بكلام الله ويعطيها تفسيراً توحيدياً:

واليك أيها الأخ الكريم هذه الواقعة: مركبة فضائية اسمها الْمُتَحَدِّي! تتحدّى من؟ بعد سبعين ثانية من انطلاقها أصبحت كتلة من اللهب، هذا الخبر ينبغي أن نقف عنده، قلعة من قلاع الكفر في العالم، كيف تهاوت كبيت العنكبوت؟ هذه آية من آيات الله الكبرى، قلعة عمرها سبعون سنة أصبحت ضعيفة كبيت العنكبوت، تهاوت ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكذلك مرض الإيدز، هو آية من آيات الله عز وجل، وهناك مرض جديد أحدث منه، وهذا المرض يؤدي إلى أن يتآكل جلد الإنسان وعضلاته في أربع وعشرين ساعة! وأسبابه أيضاً انحراف جنسي، وقد ظهر هذا المرض في بريطانيا، حوله مقالة مهمة جداً لعلّي أعرضها عليكم في دروس قادمة إن شاء الله، مرض خطير يُنهي الإنسان بأربع وعشرين ساعة، هذه كلها آيات، الإيدز آية، الأعاصير في بلاد الفسق والفجور، البلد السياحي ونوادي العُراة، والشواطئ، يهبّ إعصارٌ يُدمرها عن آخرها، هذه آيات دالة على وجود الله وعلى عظمته، فالذي أتمناه على الإخوة الكرام أنّ هذه الأحداث الكبرى ينبغي ألا نفهمها فهماً ضيقاً محدوداً، ولكن أن نربطها بكلام الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (28)

سورة الأحقاف

من اتخذ جهة أرضية و اعتمد عليها فإنقاداً للتوحيد يُخَيَّب الله له ظنه:

الشيء الثابت أنّ كلّ إنسان اتخذ جهة ما إلهاً من دون الله، هذه الجهة لا بدّ من أن تخذله، وهذا من قدر الله عز وجل، لماذا تخذله؟ من أجل أن يتعظ، وأن يتخلّى عن شركه، وهذه قاعدة أساسية، إذا اتخذت جهة من الجهات، واعتمدت عليها، واتخذتها إلهاً فالنتيجة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ودائماً خذ هذه

القاعدة؛ ولو اتكأت على جهة أرضية، واستغنييت عن الله عز وجل بهذه الجهة، هذه الجهة لا بد من أن تُحَيَّبَ أملك، لا بد من أن تتكئ عليها فلا تُتَّجِدَكَ إنقاداً للتوحيد.

عزل خالد بن الوليد من قبل عمر بن الخطاب إنقاداً لعقيدة التوحيد:

سيدنا عمر رضي الله عنه عندما عزل سيدنا خالد رضي الله عنه، وهو سيف من سيوف الله، والعزل تفسيره صعب، فعمر بن الخطاب من المبشرين بالجنة، وسيدنا خالد وصفه النبي بأنه سيف من سيوف الله، ولقد قبل العزل من قيادة الجيش، وجاء إلى عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِمَ عَزَلْتَنِي؟ فقال له عمر: والله إني لأُحِبُّكَ، -لا يكفي- فقال له: لِمَ عَزَلْتَنِي مرَّةً ثانية؟ فقال له عمر: والله إني لأُحِبُّكَ، فلما ألحَّ عليه في الثالثة، قال له: "ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يُفْتَتَنَ الناس بك لكثرة ما أبلَّيت في سبيل الله"، فعمر خاف على عقيدة التوحيد، خاف أن يظنَّ الناس أن النَّصر من عند خالد، إنما هو من عند الله فعزَّله، واستمر النَّصر، لم يتوقف، فسيدنا عمر رضي الله عنه بهذا أنقذ التوحيد، وكلَّ إنسان يعتمد على جهة أرضية، ويثق بها، وينسى ربه، فإنقاداً للتوحيد يُحَيَّبَ الله له ظنَّه، ويُحْبَطُ عمله، وعند الضرورة هذه الجهة التي عبدتها من دون الله لا تُتَّجِدَكَ، ولا تخلصك، ولا تفكَّ أسرك، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

هدف القصة في القرآن الكريم:

الموعظة والعبرة:

أيها الإخوة، عودة إلى فقرات هذه القصة، أولاً إنَّ الإنسان إذا قرأ القصة في القرآن ينبغي ألا يتوهَّمها قصة، وإنما هي حقائق، وقوانين صيغت على شكل قصة، ففيها الدروس، وفيها العبر، وفيها المواعظ، وفيها الحقائق، وفيها الأسس.

من عبد الله جاءت الخيرات و من كفر و طغى جاءه العقاب:

الشيء الثاني أنَّ الإنسان إذا عبدَ غير الله لا بدَّ من أن يعتدي، ولا بدَّ من أن ينحرف، ولا بدَّ من أن يطغى، لا بدَّ من أن يبغى لذلك يأتي العقاب، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بالمقابل:

بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

سورة الزمر

فما هي العلاقة بين قوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ﴾ وبين قوله تعالى ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؟ العلاقة أنَّك إذا عبدته جاءت الخيرات، إذاً عليك أن تشكر، وإذا لم تعبدْه وفعلت المنكرات، فإذاً عليك أن

تنتظر العقاب من الله عز وجل، إنها قوانين، ملخّص الموضوع إن عبت الله عز وجل جاءتك الخيرات فاشكر، وإن لم تعبده انحرقت فاعتديت، فظلمت فجاءك العقاب فاصبر.

على الإنسان أن يتقوى بطاعة الله و يترفع عن عبادة غيره:

الشيء الثالث في الآية، أنّ الإنسان مهما كان مُمكنًا في الأرض، من قوّة ومال وسلطان، فهذه كلها بثانية قد تصبح خبراً بعد أثر، لذا على الإنسان أن يتقوى بطاعة الله، والعوام لهم كلمة تعجبني: **التقوى أقوى**، فالاستقامة والترفع عن أموال الناس وعدم إيذائهم، هذه أحد أسباب القوّة، والإنسان عليه أن يتعظ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالإنسان إذا اعتمد على غير الله عز وجل، فهذا الذي اعتمدَ عليه يُحَيِّبُ ظَنَّهُ، وعندئذٍ يرى حقيقة التوحيد، وهي أعظم ما في الدين، وما تعلّم العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين.